الباب الأول

الطريق إلى حسن الخاتمة

obeikan.com

obeikan.com

حسن الخاتمة.. وسائلها وعلاماتها

الحمد لله الذي وسعت رحمته كل شيء وأحصى كل شيء عدداً، رحم من شاء من عباده فهيأ لهم في الدنيا ما يرفع به درجاتهم في الآخرة، فثابروا على طاعته واجتهدوا في عبادته، إن أصابتهم سراء شكروا فكان خيراً لهم، وإن أصابتهم ضراء صبروا، فكانوا ممن قال الله فيهم: ﴿**إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ**﴾ [الزمر: ١٠].

وأشهد أن محمداً عبده ورسوله المبعوث رحمة للعالمين، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً كثيرا.. أما بعد: فإن نصيب الإنسان من الدنيا عمره، فإن أحسن استغلاله فيما ينفعه في دار القرار فقد ربحت تجارته، وإن أساء استغلاله في المعاصي والسيئات حتى لقي الله على تلك الخاتمة السيئة فهو من الخاسرين، وكم من حسرة تحت التراب!! والعاقل من حاسب نفسه قبل أن يحاسبه الله وخاف من ذنوبه قبل أن تكون سبباً في هلاكه، قال ابن مسعود: المؤمن يرى ذنوبه كأنه قاعد تحت جبل يخاف أن يقع عليه. «البخاري ١١/ ٨٨، ٨٩».

وكم من شخص أصر على صغيرة فألفها وهانت عليه ولم يفكر يوماً في عظمة من عصاه فكانت سبباً في سوء خاتمته، قال أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: إنكم تعملون أعمالاً هي أدق في أعينكم من الشعر كنا نعدها على عهد رسول الله ﷺ من الموبقات. «البخاري ١١/ ٢٨٣». وقد نبه الله في كتابه جميع المؤمنين إلى أهمية حسن الخاتمة، فقال تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ**﴾ [آل عمران: ١٠٢]. وقال تعالى: ﴿**وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ**﴾ [الحجر: ٩٩].

openkan.com

فالأمر بالتقوى والعبادة مستمر حتى الموت لتحصل الخاتمة الحسنة وقد بين ﷺ أن بعض الناس يجتهد في الطاعات ويبتعد عن المعاصي مدة طويلة من عمره ولكن قبيل وفاته يقترف السيئات والمعاصي مما يكون سببًا في أن يختم له بخاتمة السوء، قال ﷺ: **(وإن الرجل ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها)** «البخاري ١١/ ٤١٧ ومسلم برقم: ٢٦٤٣».

وورد في حديث سهل بن سعد الساعدي رضي الله عنه أن رجلاً من المسلمين في إحدى المعارك مع رسول الله ﷺ أبلى بلاءً شديدًا فأعجب الصحابة ذلك وقالوا: ما أجزأ منا اليوم كما أجزأ فلان، فقال رسول الله ﷺ: **(أما إنه من أهل النار)** فقال بعض الصحابة: أينا من أهل الجنة إن كان هذا من أهل النار، فقال رجل من القوم: أنا صاحبه سأنظر ماذا يفعل فتبعه، قال فجرح الرجل جرحًا شديدًا فاستعجل الموت فوضع سيفه في الأرض وذبابه بين ثدييه ثم تحامل على سيفه فقتل نفسه فرجع الرجل إلى رسول الله ﷺ فقال: أشهد أنك رسول الله، قال: «**وما ذاك؟**» قال: الرجل الذي ذكرت آنفًا أنه من أهل النار جُرح جرحًا شديدًا فاستعجل الموت فوضع نصل سيفه بالأرض وذبابه بين ثدييه ثم تحامل عليه فقتل نفسه فقال رسول الله ﷺ عند ذلك: **(إن الرجل ليعمل بعمل أهل النار ـ فيما يبدو للناس ـ وهو من أهل الجنة)** وفي بعض الروايات زيادة **(وإنما الأعمال بالخواتيم)** «رواه البخاري ومسلم».

وقد وصف الله سبحانه عباده المؤمنين بأنهم جمعوا بين شدة الخوف من الله مع الإحسان في العمل فقال: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ (٥٧) وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ (٥٨) وَالَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لا يُشْرِكُونَ**

﴿٥٩﴾ وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ ﴿٦٠﴾ أُولَٰئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ﴾ [المؤمنون: ٥٧: ٦١]. وقد كانت هذه حالة الصحابة رضي الله عنهم.

وقد روى أحمد عن أبي بكر الصديق أنه قال: «وددت أني شعرة في جنب عبد مؤمن، وكان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يمسك بلسانه ويقول: هذا الذي أوردني الموارد» وكان علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يشتد خوفه من اثنتين طول الأمل واتباع الهوى قال: «فأما طول الأمل فينسي الآخرة، وأما اتباع الهوى فيصد عن الحق وكان يقول: ألا وإن الدنيا قد ولت مدبرة والآخرة قد أسرعت مقبلة ولكل واحدة منهما بنون، فكونوا من أبناء الآخرة ولا تكونوا من أبناء الدنيا فإن اليوم عمل ولا حساب وغدًا حساب ولا عمل». وقد كان موت الفجأة مذمومًا في الإسلام لأنه يباغت صاحبه ولا يمهله فربما كان على معصية فيختم له بالخاتمة السيئة. وقد كان السلف الصالح يخافون من سوء الخاتمة خوفًا شديدًا، قال سهل التستري: خوف الصديقين من سوء الخاتمة عند كل خطوة وعند كل حركة وهم الذين وصفهم الله تعالى إذ قال: ﴿وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ﴾. وينبغي أن يكون الخوف من سوء الخاتمة ماثلاً أمام عين العبد وفي كل لحظة، لأن الخوف باعث على العمل، وقد قال ﷺ: **(لا يوتن أحدكم إلا وهو يحسن الظن بالله عز وجل)** «مسلم برقم ٢٨٧٧». لكن كثيرًا من جهلة المسلمين اعتمدوا على سعة رحمة الله وعفوه ومغفرته فاسترسلوا في المعاصي ولم ينتهوا عن السيئات؛ بل جعلوا علمهم بهذه الصفات من أعظم الدواعي على الاستمرار على المعاصي، وهذا خطأ واضح واستدلال موصل للهلاك؛ فإن الله غفور رحيم وشديد العقاب كما صرح بذلك في كتابه في كثير من

المواضع فقال جل من قائل: ﴿**نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (٤٩) وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الأَلِيمُ**﴾ [الحجر: ٤٩: ٥٠]. وقال: ﴿**حمٓ (١) تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ (٢) غَافِرِ الذَّنبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ**﴾ [غافر: ١: ٣]. قال معروف الكرخي: رجاؤك لرحمة من لا تطيعه من الخذلان والحمق.

وقال بعض العلماء: من قطع عضواً منك في الدنيا بسرقة ثلاثة دراهم لا تأمن أن تكون عقوبته في الآخرة على نحو هذا. وينبغي للمسلم أن يحرص على أن يتخلص من ديون الناس ومظالمهم؛ فإن ما كان للعبد عند أخيه سيطلبه منه يوم القيامة لا محالة، فإن كانت له حسنات أخذ منها وإن لم يكن له حسنات أخذت من سيئاته وطرحت عليه وقد أخبر ﷺ أن نفس المؤمن معلقة بدينه حتى يقضى عنه. وسنبين هنا الأسباب التي ينشأ عنها سوء الخاتمة بإيجاز.

*** أولاً: التسويف بالتوبة:**

والتوبة إلى الله من جميع الذنوب واجبة على كل مكلف كل لحظة كما يدل عليه قوله تعالى: ﴿**وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ**﴾ [النور: ٣١].

وكان ﷺ وهو مغفور له ما تقدم من ذنبه وما تأخر يتوب إلى الله كل يوم مائة مرة. روى الأغر المزني قال، قال رسول الله ﷺ **(يا أيها الناس توبوا إلى الله فإني أتوب في اليوم إليه مائة مرة)** «مسلم برقم ٢٧٠٢». وقد بين ﷺ أن التائب من الذنب كمن لا ذنب له «ابن ماجه برقم ٤٢٥٠ وإسناده حسن».

ومن أنجح حيل إبليس التي يحتال بها على الناس التسويف في التوبة فيوسوس للعاصي أن يتمهل في التوبة فإن أمامه زمنًا طويلاً ولو تاب الآن ثم رجع لا يمكن أن تقبل توبته بعد ذلك فيكون من أصحاب النار، أو يوسوس له بأنه إذا بلغ الخمسين أو الستين مثلاً عليه أن يتوب توبة نصوحًا ويلزم المسجد ويكثر القربات أما الآن فإنه في شبابه وزهرة عمره فليمتع نفسه ولا يشق عليها بالتزام الطاعات من الآن.

هذه بعض مكائد إبليس في التسويف في التوبة. قال بعض السلف الصالح: أنذركم سوف، فإنها أكبر جنود إبليس، ومثل المؤمن الحازم الذي يتوب إلى الله من كل ذنب وفي كل وقت خوفًا من سوء الخاتمة ومحبة الله. والمفرط المسوف الذي يؤخر توبته كمثل قوم في سفر دخلوا قرية فمضى الحازم فاشترى ما يصلح لتمام سفره وجلس متأهبًا للرحيل. أما المفرط فإنه يقول: كل يوم سأتأهب غدًا حتى أعلن أمير القافلة الرحيل ولا زاد معه، وهذا مثل الناس في الدنيا فإن المؤمن الحازم متى ما جاءه الموت لم يندم، أما العاصي المفرط فإنه يقول: ﴿**رَبِّ ارْجِعُونِ (٩٩) لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ**﴾ [المؤمنون: ٩٩: ١٠٠].

*** ثانيًا: طول الأمل:**

وهو سبب شقاء كثير من الناس حين يخدعه الشيطان فيصور له أن أمامه عمرًا طويلاً وسنين متعاقبة يبني فيها آمالاً شامخة فيجمع همته لمواجهة هذه السنين لبناء هذه الآمال وينسى الآخرة ولا يتذكر الموت وإذا ذكره يومًا برم منه لأنه ينغص عليه لذاته ويكدر عليه صفو عيشه، وقد حذرنا الرسول ﷺ أشد التحذير فقال: (**إن أشد ما أخاف عليكم خصلتان:**

اتباع الهوى وطول الأمل، فأما اتباع الهوى فإنه يصد عن الحق، وأما طول الأمل فإنه الحب للدنيا) «رواه ابن أبي الدنيا بسند ضعيف».

فإذا أحب الإنسان الدنيا أكثر من الآخرة آثرها عليها واشتغل بزينتها وزخرفها وملذاتها عن بناء مسكنه في الآخرة في جوار الله في جنته مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا. ويظهر أثر قصر الأمل في المبادرة إلى الأعمال الصالحة واغتنام أوقات العمر، فإن الأنفاس معدودة والأيام مقدرة وما فات لن يعود وعلى الطريق عوائق كثيرة بَيَّنها ﷺ حينما قال: **(بادروا بالأعمال سبعًا: هل تنظرون إلا إلى فقر منس أو غنى مطغ أو مرض مفسد أو هرم مفند أو موت مجهز أو الدجال فشر غائب ينتظر أو الساعة فالساعة أدهى وأمر)** «الترمذي برقم ٢٤٠٨ وقال: حديث غريب حسن».

وقال عبد الله بن عمر رضي الله عنهما: أخذ رسول الله ﷺ بمنكبي فقال: **(كن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل)**. وكان ابن عمر يقول: «إذا أمسيت فلا تنتظر الصباح، وإذا أصبحت فلا تنتظر المساء، وخذ من صحتك لمرضك، ومن حياتك لموتك» «رواه البخاري ١١/ ١٩٠ ـ ٢٠٠».

وقد أرشد رسول الله ﷺ المؤمنين إلى ما يبعد عنهم طول الأمل ويبصرهم بحقيقة الدنيا، فأمر بتذكر الموت وبزيارة القبور وبتغسيل الموتى وتشييع الجنائز وعيادة المرضى وزيارة الصالحين فإن كل هذه الأمور توقظ القلب من غفلته وتبصره بما سيقدم عليه فيستعد له وسنتكلم عن ذلك بإيجاز:

أ ـ أما ذكر الموت دائمًا فإنه يزهد في الدنيا ويرغب في العمل الصالح وعدم الركون إلى الشهوات المحرمة في الدنيا الفانية، وقد روى أبو هريرة

رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي ﷺ قال: **(أكثروا من ذكر هادم اللذات)** «الترمذي برقم ٢٤٠٩ وقال: حديث غريب حسن ورواه ابن ماجه برقم ٤٢٥٨».

وعن ابن عمر قال: قال رجل من الأنصار: من أكيس الناس وأكرم الناس يا رسول الله؟ فقال ﷺ: **(أكثرهم للموت ذكرًا وأشدهم استعدادًا له أولئك هم الأكياس ذهبوا بشرف الدنيا وكرامة الآخرة)** «رواه ابن ماجة برقم ٤٢٥٩ بسند ضعيف مختصرًا. ورواه أيضًا ابن أبي الدنيا بإسناد صحيح جيد قاله العراقي في تخريج أحاديث الإحياء ٤/ ٤٥١».

ثم يفكر الإنسان في الموتى: ألم يكونوا أقوياء الأبدان يملكون الأموال ويأمرون وينهون؟! واليوم قد تسلط الدود على أجسادهم فنخرها وعلى عظامهم فبددها. ثم يفكر: هل له أن يسلم من الموت أم أنه سيصل إلى ما وصل إليه أولئك؟ فيستعد لتلك الدار ويتأهب بالأعمال الصالحة، فإنها العملة النافعة في الآخرة..

ب ـ أما زيارة المقابر فإنها عظة بليغة للقلوب، فإذا رأى الإنسان المساكن المظلمة المحفورة ورأى هذه النهايات التي يحشو فيها أحباء الميت عليه التراب بعد إدخاله في لحد ضيق وإغلاقه عليه بلبنات من طين ثم يرجعون عنه ويقتسمون أمواله ويتملكون مخصصاته وتزوج نساؤه وينسى بعد مدة يسيرة بعد أن كان صاحب الكلمة في البيت يأمر فيطاع وينهى فلا يعصى، فإذا زار المؤمن المقبرة وتفكر في ذلك أدرك فائدة قول النبي ﷺ: **(زوروا القبور فإنها تذكر بالموت)** «مسلم برقم ٩٧٦».

ج ـ أما تغسيل الموتى وتشييع الجنائز فإن في تقليب الجسد على خشبة المغسلة عظة بليغة، إذ هو في حال حياته وقوته لا يستطيع أن يقلبه ولا أن يدنو منه إلا بإذنه، وربما كان شديد البطش عظيم الهيبة، وقد صار بالموت

جسدًا خامدًا لا حراك به يقلبه الغاسل كيف يشاء. وقد كان مكحول الدمشقي إذا رأى جنازة قال: اغدوا فإنا رائحون، موعظة بليغة وغفلة سريعة، يذهب الأول والآخر لا عقل له، وكان عثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إذا شيع جنازة ووقف على القبر بكى فقيل له: تذكر الجنة والنار فلا تبكي، وتبكي إذا وقفت على القبر؟! فقال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: **(إن القبر أول منازل الآخرة فإن نجا منه صاحبه فما بعده أيسر منه وإن لم ينج منه فما بعده أشد)** «رواه أحمد والترمذي وحسنه ابن ماجة والحاكم وصححه».

د ـ أما زيارة الصالحين فإنها توقظ القلب وتبعث الهمة، فإن الزائر يرى الصالحين وقد اجتهدوا في العبادة وتنافسوا في الطاعة، لا غاية لهم إلا رضى الله، ولا هدف لهم إلا الفوز بجنته، معرضين عن التفاني على الدنيا والاشتغال بها لأنها معوقة عن السير في ذلك الطريق الشريف، وقد أرشد الله نبيه ﷺ أن يصبر نفسه مع هؤلاء: ﴿**وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا**﴾ [الكهف: ٢٨].

وقيل للحسن: يا أبا سعيد كيف نصنع؟ أنجالس أقوامًا يخوفننا حتى تكاد قلوبنا تطير؟ فقال: والله إنك إن تخالط أقوامًا ما يخوفونك حتى يدركك أمن خير لك من أن تصحب أقوامًا يؤمنونك حتى يدركك خوف.

*** ثالثًا: حب المعصية وإلفها واعتيادها:**

فإذا ألف الإنسان معصية من المعاصي ولم يتب منها فإن الشيطان يستولي على قلبه وتستولي المعصية على تفكيره حتى في اللحظات الأخيرة من حياته، فإذا أراد أقرباؤه أن يلقنوه الشهادة ليكون آخر كلامه لا إله إلا

الله طغت هذه المعصية على تفكيره فتكلم بما يفيد انشغاله بها وإليك بعض قصص هؤلاء. رجل كان يعمل دلالاً في السوق ولما حضرته الوفاة لقنه أولاده الشهادة فكانوا يقولون له قل: لا إله إلا الله فيقول أربعة ونصف أربعة ونصف. وقيل لآخر: قل: لا إله إلا الله فقال:

يارب قائلة يوما وقد تعبت كيف الطريق إلى حمام منجاب

وقيل لآخر: قل لا إله إلا الله فجعل يغني (الجواب الكافي ٩٦). وربما أدركه الموت في المعصية نفسها فيلقى الله على تلك الحال التي تغضبه وقد قال ﷺ: **(من مات على شيء بعثه الله عليه)** «رواه الحاكم وصححه على شرط مسلم ووافقه الذهبي».

*** رابعًا: الانتحار:**

فإذا أصاب المسلم مصيبة فصبر واحتسب كانت له أجرًا، وإن جزع وتضايق من الحياة ورأى أن أحسن طريق له ليتخلص به من هذه المشاكل هو الانتحار فقد اختار المعصية وأسرع إلى غضب الله وقتل نفسه بدون حق، وقد روى البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **(الذي يخنق نفسه يخنقها في النار والذي يطعن نفسه يطعنها في النار)**، وروى البخاري ومسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: شهد رجل مع رسول الله ﷺ خيبر فقال لرجل ممن يدعي الإسلام: هذا من أهل النار فلما حضر القتال قاتل الرجل قتالاً شديدًا فأصابه جراحه فقيل له: يا رسول الله الذي قلت له آنفًا أنه من أهل النار فإنه قد قاتل اليوم قتالاً شديدًا وقد مات فقال النبي ﷺ **(إلى النار)** فكاد بعض المسلمين أن يرتاب فبينما هم على ذلك إذ قيل له إنه لم يمت ولكنه به جراح شديدة فلما كان من الليل لم يصبر على الجراح فقتل نفسه فأخبر النبي ﷺ فقال: **(الله أكبر أشهد أني**

عبد الله ورسوله ثم أمر بلالاً فنادى في الناس أنه لن يدخل الجنة إلا نفس مسلمة وان الله ليؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر) «البخاري ٦/ ١٢٥ ومسلم برقم ١١١».

بشائر تدل على حسن الخاتمة:

نبه النبي ﷺ إلى بشائر تدل على حسن الخاتمة إن كانت وفاة العبد مع واحدة منها كان ذلك فألاً طيبًا وبشارة حسنة منها:

١ـ *نطقه بكلمة التوحيد عند الموت:* فقد روى الحاكم عن معاذ بن جبل قال: قال رسول الله ﷺ: **(من كان آخر كلامه لا إله إلا الله دخل الجنة)** «أبو داود ٣١١٦ والحاكم ١/ ٣٥١ وصححه الحاكم ووافقه الذهبي».

٢ـ *أن يموت شهيدًا من أجل إعلاء كلمة الله قال تعالى:* ﴿**وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ (١٦٩) فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (١٧٠) يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ**﴾ [آل عمران: ١٦٩: ١٧١].

٣ـ *أن يموت غازيا في سبيل الله، أو محرمًا بحج:* قال ﷺ: **(من قتل في سبيل الله فهو شهيد ومن مات في سبيل الله فهو شهيد)** «رواه مسلم أحمد»، وقال ﷺ في المحرم الذي وقصته ناقته: **(اغسلوه بماء وسدر وكفنوه في ثوبيه ولا تخمروا رأسه فإنه يبعث يوم القيامة ملبيًا)** «مسلم برقم ١٢٠٦».

٤ـ *أن يكون آخر عمله طاعة الله:* فقد روى حذيفة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **(من قال لا إله إلا الله ابتغاء وجه الله ختم له بها دخل الجنة، ومن صام يومًا ابتغاء وجه الله ختم له به دخل الجنة، ومن تصدق بصدقة ابتغاء وجه الله ختم له بها دخل الجنة)** «رواه أحمد ٥/ ٣٩١».

٥ـ الموت في سبيل الدفاع عن الخمس التي حفظتها الشريعة وهي الدين والنفس والمال والعرض والعقل: عن سعيد بن زيد قال: قال رسول الله ﷺ: **(من قتل دون أهله فهو شهيد، ومن قتل دون دينه فهو شهيد، ومن قتل دون دمه فهو شهيد)** «رواه أبو داود برقم ٤٧٧٢ والترمذي برقم ١٤١٨ و ١٤٢١».

٦ـ أن يموت صابرًا محتسبًا بسبب أحد الأمراض الوبائية: وقد نبه النبي ﷺ إلى بعضها فمنها:

أ ـ الطاعون: روى أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: **(الطاعون شهادة لكل مسلم)** «البخاري ١٠/ ١٥٦ ـ ١٥٧».

ب ـ السل: روى راشد بن حبيش قال: قال رسول الله ﷺ: **(قتل المسلم شهادة والطاعون شهادة، والمرأة يقتلها ولدها جمعاء شهادة والسل شهادة)** «رواه أحمد ٣/ ٢٨٩».

ج ـ داء البطن: روى أبو هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **(ومن مات في البطن فهو شهيد)** «رواه مسلم برقم ١٩١٥».

د ـ ذات الجنب: روى جابر بن عتيك عن النبي ﷺ: **(وصاحب ذا الجنب شهيد)** وسيأتي بتمامه بعد قليل.

٧ـ موت المرأة في نفاسها بسبب ولدها: روى عبادة بن الصامت عن النبي ﷺ أنه قال: **(والمرأة يقتلها ولدها جمعاء شهادة يجرها ولدها بسرره إلى الجنة)** «رواه أحمد ٤/ ٢٠١ و ٥/ ٣٢٣».

٨ـ الموت بالغرق والحرق والهدم: عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **(الشهداء خمسة: المطعون والمبطون والغريق وصاحب الهدم**

openkan.com

والمحروق) «الترمذي برقم ١٠٦٣ وروى نحوه مسلم برقم ١٩١٥». وعن جابر بن عتيك قال: قال رسول الله ﷺ: **(الشهداء سبعة سوى القتل في سبيل الله: المطعون شهيد، والغريق شهيد، وصاحب ذا الجنب شهيد، والمبطون شهيد، والحريق شهيد، والذي يموت تحت الهدم شهيد، والمرأة تموت بجمع شهيدة)** «رواه أحمد وأبو داود والنسائي والحاكم وقال: صحيح الإسناد ووافقه الذهبي».

٩ـ *الموت ليلة الجمعة أو نهارها*: روى عبد الله بن عمر رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: **(ما من مسلم يموت يوم الجمعة أو ليلة الجمعة إلا وقاه الله فتنة القبر)** «رواه أحمد ٢/ ١٧٦ والترمذي برقم ١٠٨٠ وقال: حديث غريب وليس إسناده بمتصل».

١٠ـ *عرق الجبين عند الموت*: فقد روى بريدة عن الحصيب رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: **(المؤمن يموت بعرق الجبين)** «رواه الترمذي برقم ٩٨٢ والنسائي ٤/ ٦ وسنده حسن».

١١ـ *الموت على عمل صالح*: لقوله ﷺ: **(من قال لا إله إلا الله ابتغاء وجه الله خُتم له بها، دخل الجنة، ومن صام يوما ابتغاء وجه الله ختم له بها، دخل الجنة، ومن تصدق بصدقة ابتغاء وجه الله ختم له بها، دخل الجنة)** «رواه الترمذي».

١٢ـ *من قتله الإمام الجائر لأنه قام إليه فنصحه*: لقوله ﷺ: **(سيد الشهداء حمزة بن عبد المطلب، ورجل قام إلى إمام جائر فأمره ونهاه فقتله)** «رواه الحاكم».

١٣ـ وأيضًا ثناء الناس بالخير على الميت من جمع من المسلمين

الصادقين أقلهم اثنان، من جيرانه العارفين به من ذوي الصلاح والعلم موجب له الجنة، وعلامة من علامات حسن الخاتمة.

فعن أنس قال: مُرَّ على النبي ﷺ بجنازة، فأثني عليها خيرًا، (وتتابعت الألسن بالخير)، (فقالوا: كان ـ ماعلمنا ـ يحب الله ورسوله)، فقال نبي الله ﷺ: **(وجبت وجبت وجبت)**. ومُرَّ بجنازة فأثني عليها شرا، (وتتابعت الألسن لها بالشر)، (فقالوا بئس المرء كان في دين الله)، فقال نبي الله ﷺ: **(وجبت وجبت وجبت)**.

فقال عمر: فِدى لك أبي وأمي، مُر بجنازة فأُثني عليها خيرًا، فقلت: وجبت وجبت وجبت، ومُر بجنازة فأُثني عليها شرًا، فقلت: وجبت وجبت وجبت؟ فقال رسول الله ﷺ: **(من أثنيتم عليه خيرًا وجبت له الجنة، ومن أثنيتم عليه شرًا وجبت له النار، الملائكة شهداء الله في السماء وأنتم شهداء الله في الأرض، أنتم شهداء الله في الأرض، أنتم شهداء الله في الأرض، أنتم شهداء الله في الأرض)** وفي رواية: **(والمؤمنون شهداء الله في الأرض)**، **(إن لله ملائكة تنطق على ألسنة بني آدم بما في المرء من الخير والشر)**.

عن أبي الأسود قال: أتيت المدينة، وقد وقع بها مرض، وهم يموتون موتًا ذريعًا، فجلست إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه، فمرت جنازة، فأُثني خيرًا، فقال عمر: وجبت، فقلت: ما وجبت يا أمير المؤمنين؟ قال: قلت كما قال النبي ﷺ: **(أيما مسلم شهد له أربعة بخير أدخله الله الجنة)**. قلنا: وثلاثة. قال: **(وثلاثة)** قلنا: واثنان؟ قال: **(واثنان)** ثم لم نسأله في الواحد.

ومن الوسائل التي جعلها الله سببًا في حسن الخاتمة:

١ـ تقوى الله في السر والعلن والتمسك بما جاء به النبي ﷺ فهو سبيل النجاة: قال تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ**﴾ [آل عمران: ١٠٢]. أن يحذر العبد من الذنوب أشد الحذر، فإن الكبائر موبقات، وإن الصغائر مع الإصرار تتحول إلى كبائر، وكثرة الصغائر مع عدم التوبة والاستغفار ران على القلب. قال ﷺ: **(إياكم ومحقرات الذنوب كقوم نزلوا في بطن واد فجاء ذا بعود وجاء ذا بعود حتى أنضجوا خبزتهم، وإن محقرات الذنوب متى يؤخذ بها صاحبها تهلكه)** «رواه أحمد ٥/ ٣٣١».

٢ـ المداومة على ذكر الله: فمن داوم على ذكر الله وختم به جميع أعماله، وكان آخر ما يقول من الدنيا لا إله إلا الله نال بشارة النبي ﷺ حيث قال: **(من كان آخر كلامه لا إله إلا الله دخل الجنة)** «أبو داود ٣١١٦ والحاكم ١/ ٣٥١ وصححه الحاكم ووافقه الذهبي». وروى سعيد بن منصور عن الحسن قال: سئل النبي ﷺ: أي الأعمال أفضل؟ قال: **(أن تموت يوم تموت ولسانك رطب من ذكر الله)** «المغني لابن قدامة ٢/ ٤٥٠».

اللهم اجعل خير أعمالنا خواتيمها، وخير أيامنا يوم لقائك واجعلنا مع الذين أنعمت عليهم في جنتك وجوارك، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه(*).

(*) الشيخ الدكتور/ عبد الله بن محمد المطلق.

openkan.com

حسن الخاتمة.. بشير ونذير

* إن آخر ساعة في حياة الإنسان هي الملخص لما كانت عليه حياته كلها. فمن كان مقيمًا على طاعة الله عز وجل بدا ذلك عليه في آخر حياته ذكرًا وتسبيحًا وتهليلاً وعبادة وشهادة.

* فهلموا ننظر كيف كانت ساعة الاحتضار على سلفنا الصالح الذين عاشوا على طاعة الله وماتوا على ذكر الله، يأملون في فضل الله ويرجون رحمة الله، مع ما كانوا عليه من الخير والصلاح.

* لما رأت فاطمة رضي الله عنها ما برسول الله ﷺ من الكرب الذي يتغشاه عند الموت قالت: واكرب أبتاه، فقال لها: **(ليس على أبيك كربٌ بعد اليوم)**.

* وهذا عبد الله بن جحش عندما خرج لمعركة أحد دعا الله عز وجل قائلا: (يا رب إذا لقيت العدو فلقني رجلاً شديداً بأسه، شديداً حرده فأقاتله فيك، ويقاتلني، ثم يأخذني ويجدع أنفي وأذني، فإذا لقيتك غدًا، قلت: يا عبد الله من جدع أنفك وأذنك؟ فأقول: فيك وفي رسولك، فتقول: صدقت). وبعد المعركة رآه بعض الصحابة مجدوع الأنف والأذن كما دعا.

* وطعن جبار بن سلمى الكلبي عامر بن فهيرة يوم بئر معونة، فنفذت الطعنة فيه، فصاح عامر قائلا: فزت ورب الكعبة.

* وكان بلال بن رباح يردد حين حضرته الوفاة وشعر بسكرات الموت قائلا: (غدًا نلقى الأحبة: محمدًا وصحبه، فتبكي امرأته قائلة: وابلالاه واحزناه فيقول: وافرحاه).

openkan.com

* وعندما خطب رسول الله ﷺ في أصحابه حاثًا لهم على الاستشهاد في سبيل الله في معركة بدر قال: **(قوموا إلى جنة عرضها السموات والأرض)**.

فسمع عمير بن الحُمام هذا الفضل العظيم وقال: والله يا رسول الله إني أرجو أن أكون من أهلها. فقال: **(إنك من أهلها)**.

فأخرج عمير تمرات من جعبته ليأكلها ويتقوى بها، فما كادت تصل إلى فمه حتى رماها وقال: إنها لحياة طويلة إن أنا حييت حتى آكل تمراتي، فقاتل المشركين حتى قتل.

* وعندما حضرت الوفاة معاذ بن جبل قال: مرحبًا بالموت زائرًا مغيبًا، وحبيبًا جاء على فاقة، اللهم إني كنت أخافك، فأنا اليوم أرجوك، اللهم إنك تعلم أني لم أكن أحب الدنيا لجري الأنهار ولا لغرس الأشجار، ولكن لظمأ الهواجر ومكابدة الساعات، ومزاحمة العلماء عند حِلَقَ الذكر.

* ولما احتضر عمر بن عبد العزيز قال لمن حوله: أخرجوا عني فلا يبق أحد. فخرجوا فقعدوا على الباب فسمعوه يقول: مرحبًا بهذه الوجوه، ليست بوجوه إنس ولا جان، ثم قال: ﴿**تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علوا في الأرض ولا فسادا والعافية للمتقين**﴾ ثم قبض رحمه الله.

* ولما حضرت آدم بن إياس الوفاة ختم ما تبقى عليه من سور القرآن وهو مسجّى، فلما انتهى قال: اللهم ارفق بي في هذا المصرع، اللهم إني كنت أؤملك لهذا اليوم وأرجوك. ثم قال: لا إله إلا الله وقضى.

* ولما حضرت الوفاة أبا الوفاء بن عـقيل بكى أهله، فقال لهم: لي خمسون سنة أعبده، فدعوني أتهنى لمقابلته.

* قال أنس بن مالك: ألا أحدثكم بيومين وليلتين لم تسمع الخلائق بمثلهن؟!

أول يوم يوم يجيئك البشير من الله، إما برضاه وإما بسخطه.

واليوم الثاني يوم تعرض فيه على ربك آخـذًا كتابك إما بيمينك وإما بشمالك.

وأول ليلة: ليلة تبيت فيها بالقبر.

والليلة الثانية: ليلةٌ صبيحتُها يوم القيامة.

* وقال المزني: دخلت على الشافعي في مرضه الذي مات فيه فقلت كيف أصـبحت؟ فقـال: أصبحت من الدنيـا راحلاً، ولإخواني مفـارقًا، ولكأس المنية شـاربًا، ولسوء عملي مـلاقيا. وعلى الله تعـالى واردًا، فلا أدري: روحي تصير إلى الجنة فأهنيها أو إلى النار فأعزيها. ثم بكى.

* ولما احتضر عامر بن عبد الله بكى وقال: لمثل هذا المصرع فليعمل العاملون.

* وكـان يزيد الرقاشي يـقول لنفـسـه: ويحك يا يزيد من ذا الذي يصلي عنك بعد الموت؟! من ذا الذي يصوم عنك بعد الموت؟!

ثم يقـول: أيهـا الناس، ألا تبكون وتـنوحـون على أنفـسكم باقي حياتكم؟!

يا من الموت موعده، والقبر بيتـه والثرى فراشه، والدود أنيسه. وهو مع هذا ينتظر الفزع الأكبر كيف يكون حاله!!

obeikan.com

وكثير من السلف الصالح مات وهو على طاعة داوم عليها فترة حياته.

* فهذا أبو الحسن النساج لما حضره الموت غشي عليه عند صلاة المغرب، ثم أفاق ودعا بماء فتوضأ للصلاة ثم صلى ثم تمدد وأغمض عينيه وتشهد ومات.

* وهذا ابن أبي مريم الغساني، لم يفطر مع أنه كان في النزع الأخير وظل صائمًا فقال له من حوله: لو جرعت جرعة ماء، فقال بيده: لا، فلما دخل المغرب قال: أذن، قالوا: نعم، فقطروا في فمه قطرة ماء، ثم مات.

* ولما احتضر عبد الرحمن بن الأسود بكى فقيل له: ما يبكيك؟!

فقال: أسفًا على الصلاة والصوم، ولم يزل يتلو القرآن حتى مات!!

* وهذا أبو حكيم الخبري كان جالسًا ينسخ الكتب كعادته.

فوقع القلم من يده وقال: إن كان هذا موتًا، فوالله إنه موت طيب، فمات.

* وعن الفضل بن دكين قال: مات مجاهد بن جبر وهو ساجد.

إن حسن الخاتمة هي أن يوفق العبد قبل موته للتوبة عن الذنوب والمعاصي والإقبال على الطاعات وأعمال الخير.

ثم يكون موته بعد ذلك على هذه الحال الحسنة.

ومما يدل على هذا ما روى أحمد في مسنده، قال: (إذا أراد الله بعبده خيرًا استعمله)، قالوا: كيف يستعمله، قال: (يوفقه لعمل صالح قبل موته).

ومن العلامات التي يظهر بها للعبد حسن خاتمته هي ما يبشر به عند

موته من رضا الله تعالى واستحقاقه كرامته تفضلاً منه تعالى. كما قال جل وعلا: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلائِكَةُ أَلاَّ تَخَافُوا وَلا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ**﴾ [فصلت: ٣٠].

وهذه البشارة تكون للمؤمنين عند احتضارهم وفي قبورهم وعند بعثهم يوم القيامة.

وفي الصحيحين قال ﷺ: (**إن المؤمن إذا بُشر برحمة الله ورضوانه وجنته أحب لقاء الله، وإن الكافر إذا بشر بعذاب الله وسخطه كره لقاء الله، وكره الله لقاءه**) «رواه أبو داود».

ومن علامات حسن الخاتمة: الموت على عمل صالح لما رواه أحمد في مسنده قال: (من قال لا إله إلا الله ابتغاء وجه الله وختم له بها دخل الجنة، ومن صام يوما ابتغاء وجه الله خُتم له به دخل الجنة. ومن تصدق بصدقة ختم له بها، دخل الجنة).

ولكي يدرك العبد المؤمن حسن الخاتمة فينبغي له أن يلزم طاعة الله وتقواه والحذر من ارتكاب المحرمات فقد يموت عليها، والمبادرة إلى التوبة من الذنوب.

* أما الخاتمة السيئة فهي أن تكون وفاة الإنسان وهو معرض عن ربه جل وعلا، مقيم على ما يسخطه سبحانه، مضيع لما أوجبه الله عليه، ولا ريب أن تلك نهاية بئيسة، طالما خافها المتقون، وتضرعوا إلى ربهم سبحانه أن يجنبهم إياها.

* ومن أسباب سوء الخاتمة أن يصر العبد على المعاصي ويألفها، فإن الإنسان إذا ألف شيئًا مدة حياته وأحبه وتعلق به، فالغالب أنه يموت عليه.

openkan.com

قال ابن كثير رحمه الله: (إن الذنوب والمعاصي والشهوات تخذل صاحبها عند الموت).

يقول ابن القيم رحمه الله: وسوء الخاتمة لا يكون لمن استقام ظاهره وصلح باطنه، إنما يكون لمن له فساد في العقيدة، أو إصرار على الكبيرة، أو إقدام على العظائم، فربما غلب ذلك عليه حتى ينزل عليه الموت قبل التوبة، فيأخذه قبل إصلاح الطوية ويصطدم قبل الإنابة والعياذ بالله.

فالواجب علينا إن مات أحد المسلمين ميتة سوء، وهو على معصية من المعاصي، أن نستعيذ بالله من ميتة كميتته، وأن ندعو له، وألا نشهر به في المجالس، فقد أفضى إلى ما قدّم.

ولكن مع ذلك، فيجب علينا ألا نمجد ميتته هذه، وألا نتكلم في وسائل الإعلام بأنه مات في ساحة النضال وميدان البطولة والشرف، وأن ميتته كانت من أجمل الميتات.

لأن هذه الأمة لا تعرف إلا ساحة نضال واحدة وميدان بطولة واحد، وهو جهاد أعداء الله عز وجل، ولأن أجمل ميتة في التاريخ هي الموت على طاعة الله عز وجل.

ولكن وسائل الإعلام كعادتها درجت على خلخلة المفاهيم الصحيحة في عقول الناس وجعلت المعروف منكرًا والمنكر معروفًا وخاصة تلك الفضائيات التي أمسك بزمامها من لا خلاق لهم ولا أخلاق.

وحملوا على عاتقهم إفساد هذه الأمة وتغيير ثوابتها؛ فبئس ما يقولون وما يفعلون(*).

(*) إبراهيم الغامدي.

سوء الخاتمة.. دلائل وأسباب

المراد بسوء الخاتمة أن تغلب الوساوس الرديئة على العبد في حال مفارقته الدنيا بشك أو جحود، أو تعلق بالحياة الدنيا فيختم له بما يوجب له الخلود في نار جهنم، أو بما يوجب له دخولها فترة إن لم يغفر له الله جل وعلا.

والخوف من سوء الخاتمة هو الذي طيش قلوب الصديقين، وحير أفئدتهم في كل حين، ليس لهم في الدنيا راحة، كلما دخلوا سكة من سكك السكون أخرجهم الجزع إلى شارع من شوارع الخوف.

أروح بشجو ثم أغدو بمثله وتحسب أني في الثياب صحيح

أحكم القوم العلم، فحكم عليهم بالعمل، فقاطعوا التسويف الذي يقطع أعمار الأعمال، وانتبهوا فانتبهوا لليل والنهار، وأخرجوا قوى العزائم إلى الأفعال، فلما قضوا ديون الجد قضت عليهم بالحذر من الرد.

والقلوب بين إصبعين من أصابع الرحمن يقلبها كيف يشاء سبحانه كما ثبت ذلك عن المصطفى ﷺ.

كم سمعنا عمن آمن ثم كفر، وكم رأينا من استقام ثم انحرف، ولذلك كان كثيرا ما يردد عليه الصلاة والسلام في دعائه (**يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك**).

ولقد ارتد في زمن النبي ﷺ بعض من آمن، فخرجوا من النور إلى الظلمات، منهم عبيد الله بن جحش الذي هاجر إلى الحبشة فارتد عن دينه ودخل في النصرانية والعياذ بالله.

وارتد بعد وفاته عليه الصلاة والسلام خَلقٌ كثير فقاتلهم أبو بكر الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وارتد كذلك خلق في خلافة عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ منهم ربيعة بن أمية بن خلف، وكان في عداد الصحابة، حيث كان رجلاً شرابًا للخمر فحده عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ثم نفاه إلى خيبر ففر هاربًا إلى هرقل، فارتد عن دينه ودخل في النصرانية من أجل خمره نعوذ بالله تعالى من ذلك.

يقول الإمام القرطبي رحمه الله في التذكرة: «إذا كانت الهداية إلى الله مصروفه والاستقامة على مشيئته موقوفة، والعافية مغيبة والإرادة غير مغالبة فلا تعجب بإيمانك وعملك وصلاتك وصومك وجميع قربك؛ فإن ذلك وإن كان من كسبك فإنه من خلق ربك وفضله الدارّ عليك وخيره، فمهما افتخرت بذلك كنت المفتخر بمتاع غيرك، وربما سلب عنك فعاد قلبك من الخير أخلى من جوب البعير، فكم من روضة أمست وزهرها يانع عميم، فأصبحت وزهرها يابس هشيم، إذ هبت عليها الريح العقيم، كذلك العبد يمسي وقلبه بطاعة الله مشرق سليم فيصبح وهو بمعصيته مظلم سقيم، ذلك فعل العزيز الحكيم الخلاق العليم).

ولذلك خاف الأولياء أن يمكر بهم، فإنه سبحانه يمكر بمن يستحق المكر، قال ابن القيم رحمه الله: «أما خوف أوليائه من مكره فحق، فإنهم يخافون أن يخذلهم بذنوبهم وخطاياهم فيصيرون إلى الشقاء، فخوفهم من ذنوبهم، ورجاؤهم لرحمته، وقوله تعالى: ﴿**أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ**﴾ [الاعراف:٩٩] إنما هو في حق الفجار والكفار. ومعنى الآية: فلا يعصي ويأمن مقابلة الله له على مكر السيئات بمكره أن يؤخر عنهم عذاب الأفعال فيحصل منهم نوع اغترار، فيأنسوا بالذنوب فيجيئهم العذاب على غره وفترة.

وأمر آخر: وهو أن يغفلوا ذكره فيتخلى عنهم إذا تخلوا عن ذكره وطاعته، فيسرع إليهم البلاء والفتنة فيكون مكره بهم تخليه عنهم.

وأمر آخر: أن يعلم من ذنوبهم وعيوبهم مالا يعلمونه من نفوسهم فيأتيهم المكر من حيث لا يشعرون.

وأمر آخر: أن يمتحنهم ويبتليهم بما لا صبر عليه، فيفتنون به وذلك مكر.

* وقد يظهر على بعض المحتضرين علامات أو أحوال تدل على سوء الخاتمة، مثل النكوب عن نطق الشهادة «شهادة أن لا إله إلا الله» ورفض ذلك، ومثل التحدث في سياق الموت بالسيئات والمحرمات وإظهار التعلق بها، ونحو ذلك من الأقوال والأفعال التي تدل على الإعراض عن دين الله تعالى والتبرم لنزول قضائه.

* ***ولعل من المناسب أن نذكر بعض الأمثلة على ذلك:***

ذكر العلامة ابن القيم رحمه الله (في كتابه: الجواب الكافي) أن أحد الناس قيل له وهو في سياق الموت: قل لا إله إلا الله، فقال: وما يغني عني وما أعرف أني صليت لله صلاة؟! ولم يقلها.

ونقل الحافظ ابن رجب رحمه الله (في كتابه: جامع العلوم والحكم) عن أحد العلماء، وهو عبد العزيز بن أبي رواد أنه قال: حضرت رجلاً عند الموت يلقن لا إله إلا الله، فقال في آخر ما قال: هو كافر بما تقول. ومات على ذلك، قال: فسألت عنه، فإذا هو مدمن خمر، فكان عبد العزيز يقول: اتقوا الذنوب، فإنها هي التي أوقعته.

ونحو هذا ما ذكره الحافظ الذهبي رحمه الله أن رجلاً كان يجالس شُرّاب الخمر، فلما حضرته الوفاة جاءه إنسان يلقنه الشهادة فقال له: اشرب واسقني ثم مات.

وذكر الحافظ الذهبي رحمه الله أيضًا (في كتابه: الكبائر) أن رجلاً ممن كانوا يلعبون الشطرنج احتضر، فقيل له: قل لا إله إلا الله فقال: شاهك. في اللعب، فقالها عوضًا عن كلمة التوحيد.

ومن ذلك ما ذكره العلامة ابن القيم رحمه الله عن رجل عرف بحبه للأغاني وترديدها، فلما حضرته الوفاة قيل له: قل لا إله إلا الله، فجعل يهذي بالغناء ويقول: تاتنا تتتا.. حتى قضى ولم ينطق بالتوحيد.

وقال ابن القيم أيضا: أخبرني بعض التجار عن قريب له أنه احتضر وهو عنده، وجعلوا يلقنونه لا إله إلا الله وهو يقول: هذه القطعة رخيصة، وهذا مشتر جيد، هذه كذا. حتى قضى ولم ينطق التوحيد نسأل الله العافية والسلامة من كل ذلك.

وقد عقب العلامة ابن القيم على بعض القصص المذكورة آنفا، فقال: «وسبحان الله، كم شاهد الناس من هذا عبرًا؟ والذي يخفى عليهم من أحوال المحتضرين أعظم وأعظم، فإذا كان العبد في حال حضور ذهنه وقوته وكمال إدراكه، قد تمكن منه الشيطان، واستعمله فيما يريده من معاصي الله، وقد أغفل قلبه عن ذكر الله تعالى، وعطل لسانه عن ذكره، وجوارحه عن طاعته، فكيف الظن به عند سقوط قواه، واشتغال قلبه ونفسه بما هو فيه من ألم النزع؟ وجمع الشيطان له كل قوته وهمته، وحشد عليه بجميع ما يقدر عليه لينال منه فرصته، فإن ذلك آخر العمل، فأقوى ما يكون عليه شيطانه ذلك الوقت، وأضعف ما يكون هو في تلك الحال، فمن ترى يسلم من ذلك؟ فهنا: ﴿**يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ**﴾ [إبراهيم: ٢٧]. فكيف يوفق بحسن الخاتمة من أغفل الله سبحانه قلبه عن

ذكره، واتبع هواه، وكان أمره فرطًا، فبعيد من قلبه، بعيد عن الله تعالى غافل عنه، متعبد لهواه، أسير لشهواته، ولسانه يابس عن ذكره، وجوارحه معطلة عن طاعته، مشتغلة بمعصيته ـ بعيد أن يوفق للخاتمة بالحسنى».

وسوء الخاتمة على رتبتين ـ نعوذ الله من ذلك: على القلب عند سكرات الموت وظهور أهواله: إما الشك وإما الجحود فتقبض الروح على تلك الحال وتكون حجابًا بينه وبين الله، وذلك يقتضي البعد الدائم والعذاب المخلد.

والثانية وهي دونها، أن يغلب على قلبه عند الموت حب أمر من أمور الدنيا أو شهوة من شهواتها المحرمة، فيتمثل له ذلك في قلبه، والمرء يموت على ما عاش عليه، فإن كان ممن يتعاطون الربا فقد يختم له بذلك، وإن كان ممن يتعاطون المحرمات الأخرى مثل المخدرات والأغاني والتدخين ومشاهدة الصور المحرمة وظلم الناس ونحو ذلك فقد يختم له بذلك، أي بما يظهر سوء خاتمته والعياذ بالله، ومثل ذلك إذا كان معه أصل التوحيد فهو مهدد بالعذاب والعقاب.

أسباب سوء الخاتمة:

وبهذا نعلم أن سوء الخاتمة يرجع لأسباب سابقة، يجب الحذر منها.

ومن أعظمها: فساد الاعتقاد، فإن من فسدت عقيدته ظهر عليه أثر ذلك فكان أحوج ما يكون إلى العون والتثبيت من الله تعالى.

ومنها: الإقبال على الدنيا والتعلق بها.

ومنها: العدول عن الاستقامة والإعراض عن الخير والهدى.

ومنها: الإصرار على المعاصي وإلفها، فإن الإنسان إذا أَلِف شيئا مدة

حياته وأحبه وتعلق به، يُحبب ذكره إليه عند الموت، ويردده حال الاحتضار في كثير من الأحيان.

وقال الحافظ ابن كثير رحمه الله: «إن الذنوب والمعاصي والشهوات تخذل صاحبها عند الموت، مع خذلان الشيطان له، فيجتمع عليه الخذلان مع ضعف الإيمان، فيقع في سوء الخاتمة، قال تعالى: ﴿**وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلإِنسَانِ خَذُولاً**﴾ [الفرقان: ٢٩]».

وسوء الخاتمة أعاذنا الله منها لا يقع فيها من صلح ظاهره وباطنه مع الله، وصدق في أقواله وأعماله، فإن هذا لم يسمع به، وإنما يقع سوء الخاتمة لمن فسد باطنه عقدًا، وظاهره عملاً، ولمن له جرأة على الكبائر، وإقدام على الجرائم، فربما غلب عليه حتى ينزل به الموت قبل التوبة.

* لأجل ذلك كان جديرًا بالعاقل أن يحذر من تعلق قلبه بشيء من المحرمات، وكان جديرًا به أن يلزم قلبه ولسانه وجوارحه ذكر الله تعالى، وأن يحافظ على طاعة الله حيثما كان، من أجل تلك اللحظة التي إن فاتت وخذل فيها شقي شقاوة الأبد(*).

(*) خالد بن عبد الرحمن الشايع.

حسن الخاتمة والهيروين

اذكر أهم سبب من وجهة نظرك دفعك إلى الامتناع عن تعاطي الهيروين المخدر؟

ما سبق. . كان سؤالاً مفتوحًا جرى توجيهه إلى قرابة ٧٥ متعافيًا من تعاطي الهيروين من الذين مضى على امتناعهم ستة أشهر وأكثر، وكان الهدف من هذه الدراسة معرفة هل هناك أسباب معينة تلقي بظلالها على المتعاطي أكثر من غيرها وتؤدي به للامتناع عن التعاطي؟

وعلى الرغم من تسليمنا بأننا لا نستطيع أن نرجع الظواهر الإنسانية لسبب معين مهما كانت أهمية ذلك السبب إلا أننا نهدف إلى السبب الأهم والذي يلقى قبولاً وصدى في وجدان وعقل المتعاطي ضمن عدة أسباب من وجهة نظر المتعاطي نفسه حتى نستطيع أن نركز الجهد حوله في مجال التوعية والوقاية بدلاً من تبعثرها.

وبعد جمع الإجابات وتحليلها تبين أن الجانب الإيماني يطغى على معظم الإجابات حيث بلغت نسبتهم ٦٣٪ من المجموع الكلي حيث كانت إجاباتهم تتمحور حول الخوف من الله وملاقاته وهو متعاطٍ، والخوف من سوء الخاتمة.

ويأتي بعد ذلك الجانب الأسري بما نسبته ١٩٪ حيث كانت إجاباتهم تتمحور على أن الأسرة بعد ذلك ممثلة بالوالدين والزوجة والأولاد هي الدافع للامتناع عن المخدر وكذلك الخوف من تشرد الأسرة.

ومن ثم يأتي الجانب الجسمي في المرتبة الثالثة بنسبة ٨٪ حيث كانت

إجاباتهم تتمثل في الخوف من الإصابة بالأمراض وخاصة الجلطات والإيدز.

وجاء الجانب العقابي والمالي مع جوانب أخري في المراتب الأخيرة بما نسبته ١٠٪ من المجموع الكلي من الإجابات.

ويتبين لنا من خلال ما سبق أهمية حسن الخاتمة ودورها في عودة المتعاطي لجادة الصواب، فهذه الفئة على الرغم من ارتكابها الكثير من المعاصي والجرائم الناتجة عن تعاطي الهيروين والتي يعف اللسان والقلم عن ذكرها والتي لا تخفى على أحد ولا سبيل لذكرها فإنها لم تجد ما يردعها ويمنعها سوى الخوف من الآخرة وعقابها إذا مات وهو متعاطٍ، وخاصة وان لهم من الخبرة في هذا المجال وأقصد موت رفاقهم أمام أعينهم نتيجة التعاطي في خاتمة سيئة هذه الخبرة التي لا يحصل عليها أحد غيرهم.

فالأسرة والخوف عليها وعلى سمعتها وعلى تشرد الأبناء جاءت في المرتبة الثانية وبنسبة ضئيلة أمام سوء الخاتمة، كما أن إصابة المدمن بالمرض رغم خطورة المرض الذي عادة ما يصابون به؛ فأمراضهم ليست كأي مرض، رغم ذلك لم تكن رادعًا يذكر وأتت بالمرتبة الثالثة بنسبة ضئيلة جدًا. أما السجن والعقوبة فرغم دخولهم السجن أكثر من مرة بسبب التعاطي وتكرار العلاج وجرائم توابع التعاطي فلا تكاد نسبته أمام سوء الخاتمة تذكر.

ونتيجة هذه الدراسة المتواضعة فإنها تدعونا إلى تركيز جهودنا في توعية هذه الفئة بسوء الخاتمة وأهمية حسن الختام في الإسلام، وأن نوضح لهم الأدلة من القرآن والسنة المطهرة على سوء الخاتمة، وأن نذكرهم دائمًا

بها، فقد روى جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن النبي ﷺ قال: **(يبعث كل عبد على ما مات عليه)** «رواه الحاكم»، وفي قصة الرجل الذي سقط عن راحلته في عرفة وأخبر الرسول ﷺ أنه يبعث ملبيًا، وأخبر أن الشهيد يبعث يوم القيامة وجرحه يدمي اللون لون الدم والريح ريح المسك، وما كان موت الفجاءة مذمومًا إلا لأنه يفاجئ صاحبه قبل التوبة من المعاصي.

فعندما ندق على هذه الوتر الحساس والذي هو الدافع الأهم لمن سبقوهم في هذا المجال للامتناع عن المخدر فهذا مدعاة إلى رجوعهم إلى الحق وتوبتهم بإذن الله، فعلينا أن نهتم بهذا الجانب ونقوم بتنميته والتوعية من خلاله بداية بالأسرة ممثلة في الزوجة والوالدين والإخوان، ومن ثم جميع مؤسسات المجتمع المختلفة عامة والمناط بها التوعية والإرشاد خاصة كالمساجد والدعاة (خاصة من لهم قبول لدى الشباب) ولجان التوعية بأضرار المخدرات للجوء إلى المصحات العلاجية.

وألا تقتصر هذه التوعية وهذا التركيز على متعاطي الهيروين فقط، فما ينطبق عليهم ينطبق على غيرهم وإن كان بدرجة أقل، فإن قال أحدهم إن الحشيش والحبوب وهما الأكثر انتشارًا في مجتمعنا لا يؤدي تعاطيه للوفاة وبالتالي سوء الخاتمة التي يخاف من عاقبتها متعاطي الهيروين فتقول له: وهل تضمن ألا يأتيه الموت وهو متعاط لها وخاصة ونحن نشاهد اقتران قيادة البعض للسيارات بتهور مع تعاطي الحبوب والحشيش، مع عدم إغفال الجوانب الأخرى كالأسرة والإصابة بالأمراض(*).

(*) المقدم/ نايف خربوش الذويبي ـ مدير وحدة مكافحة المخدرات ـ بمستشفى جدة.